اجتهادات
لا أحد على صواب

أشفقتُ عليه من حزن يعصر قلبه ووجع يؤلمه ولا يستطيع أحد مداواته. وبرغم أن هذا حال كل عربى يُفكر فيما آلت إليه أوضاعنا، كان وجع محسن العينى أكبر. لا أفق واضحًا، قريبًا أو بعيدًا، لوضع حد لخراب الوطن الذى كان فى قلب أحداثه على مدى نحو نصف قرن. رحل العينى قبل أيام يائسًا من إنقاذ الوطن، ومعتقدًا أن استعصاء أزمته على الحل سيطول.

عندما زرتُه للمرة الأخيرة قبل بضع سنوات، كان التفاعل بين أمراض تقدم العمر والمرض اليمنى العُضال ظاهرًا بوضوح عليه. كانت زيارات أصدقاء هى ما بقى له فى مرحلته الأخيرة، وما ساعده على التماسك لفترة أطول حتى رحل عن 89 عامًا فى القاهرة التى أحبها منذ أن جاء إليها للدراسة فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة عام 1952، وارتبط بعلاقة وثيقة معها عندما تولى عددًا من المواقع الدبلوماسية عقب إعلان الجمهورية اليمنية عام 1962، ثم صار رئيسًا للحكومة عدة مرات بين 1967 و1974. وبعد أن أنهى خدمته العامة سفيرًا لليمن لدى الولايات المتحدة عام 1997، شارك فى أنشطة ثقافية وفكرية كثيرة التقيه فى بعضها.

وعندما أتانى النبأ الحزين، عدتُ مرة أخرى إلى مذكراته التى سماها (خمسون عامًا فى الرمال المتحركة)، وهى كانت كذلك فعلاً. وربما يكون

هذا العنوان أبرز ما فى مذكراته، التى كتبها بحرص بالغ لكى لا يُغضب أحدًا، فجاءت مصداقًا لطبائعه أكثر مما كشفت عن خبايا أحداث يعرفها. فقد اتسم فى عمله العام، كما فى حياته الخاصة، بوسطية تلقائية انطلاقًا من إيمانه بخطر التخندق الذى رأى أنه أحد أخطر الأمراض التى تفتك بالعرب.

ولهذا، ختم مقدمة مذكراته بالتذكير بأن ما آل إليه وضع العرب نتج عن أخطاء ارتكبها الجميع: (لاشك فى أننا جميعًا أخطأنا، وإلا لما كانت هذه هى الحال. وإذا أصر كل جانب على القول إنه كان على صواب، فذلك خداع للنفس، وعزوف عن البحث عن مخرج 00).

وبعد 20 عامًا على إصدار مذكراته، يبدو كم كان مُحقًا حين نبه إلى أن أحدًا لم يكن على صواب.